# لئلا تتصلب الشرايين !

قصة بقلم سميرة عزام

فتح عينيه فاذا بالغرفة ليل ، احس بشيء من الفزع،لقد استرخى بعد الغداء على سرير غرفته بالفندق متصفحا مجلات حملها معه، ثم يبدو انه لم يستطع ان يقاوم النوم . مد يده يتحسس زر المصباح الجانبي وضغطه ثم حدق في الساعة . كانت تجاوز السادسة بدقائق. رفعها الى اذنيه ليتأكد من انها ليست واقفة ، ثم قفز من فراشه وازاح الستائر . حركةالشارع لم تهدأ بعد ، فالمساء ، اذن ، في اوله. تساءل ماذا يمكن أن يفعل . كان وحيدا لم يعرض عليه احد من موظفي الشركة التي انتدب لتدقيق حساباتها صحبته . ولكن على كل حال لن يدع الضجر يخنقه في المدينة الكبيرة .

تحول عن النافذة الى مغسلة الحمام ، ووضع وجهه تحت حنفية الماء ، وإصلح من شأنه ، واغلق الباب ، وهبط السلم المفضي الى القاعة . تأمل فيما حواليه. كانت خالية الا من امرأتين تحمل احداهما راديو ترانزستور ، اما الاخرى فقد اكبت على الحاجز بشكل ابرز ردفيها وراحت تتحدث صياحا في مكالمة يبدو انها خارجية ، في حين راح موظف الفندق يصغي بشيء من الفضول . فكر في ان يجلس قليلا ولكنه لم يسترح للسن الذهبية في فم حاملة الترانزستور التي احتضنت حقيبتي يد . فانجه الى الباب وتلكأ قليلا .كان المساء كابيا وقد جثمت على المدينة سماء رمادية غامت معها ملامح البنايات ، ولم تكن الانوار الصغيرة المزروعة في رؤوس الحوانيت والمحلات قادرة على ان تتشبث بالنهار . فقد غلفها الرذاذ المتساقط بغباش امتص ضوءها فلم تعد اكثر من نواصات حمراء او خضراء . نظر في اتجاهي الطريق ، ولم يشأ ان يسأل موظف الاستعلامات الذي يبدو مستعدا لكل خدمة ، وقرر ان يترك للصدفة أن تلقي به الى اي مكان من هذه الامكنة التي تنوص اضواؤها تحت مساء شتائي .

انعطف الى اليمين ، كان بحاجة الى المشي ولن يمنعه الرذاذ الخفيف من ذلك ، ولكن السماء كانتتضيء ببروق متلاحقة ، وفي خلال خمس دقائق اشتد الرذاذ وكبرت النقطة وعنفت وباتت ابواق السيارات اكثر عصبية وهي تشق طريقها في الشارع المزدحم ، وضاق الرصيف بالمتدافعين . كان البحث عن تاكسي عسيرا ، فتطلع الى يمينه يلتمس بافطة يلوذ بها ، ولدى اول مكان مشرع الباب توقف لحظة ثم دخل ..

***

المكان فارغ ، ومنظر الطاولات الرخامية المكشوفة يبعث قشعريرة في جسمه . لم تكن هناك موسيقى تملأ الفراغ ، والانوار صريحة تعري كل شيء وتجعل العلاقة بين الموائد علاقة مبتذلة ، وهذا مكان لا يستهين رواده على شربهم بالشعائر .. وانه ليحلم بزاوية حمراء دفيئة،وبامراة يذوق بها طعم المدينة .. ولكن الساقي ودود ، وقد فرش ابتسامة كبيرة ، والسماء تمطر ، والمساء يهتز في الخارج تحت قصف الرعد ، وهو بحاجة الى من يبادله الابتسام .

اقترب من البار وهو يفرك راحتيه :

ـ محلك فارغ

ـ لم تتجاوز السادسة الا بقليل . انت تبدأ مبكرا

ـ انا غريب

ـ قبل أن تشرب فقط .. كيف تريده ؟ بالصودا ؟

واعتلى الكرسي الطويل واشعل سيجارة وهو يتامل الساقي يصب له من زجاجة كبيرة الحجم بشكل غير عادي ، متسائلا كيف عرف هذا ان يحدد شرابه قبل أن يطلبه. تناول الكأس ورشف رشفتين . وكانت امامه صحيفة مطوية فتناولها ، الا انه عف عن صفحاتها الاولى وتسلى باخبار الفن والجريمة . وحين انتهىكانت كأسه قد فرغت فطلب اخرى، وعرض على التساقي ان يشرب واحدة على الحساب ، ثم ادار كرسيه متاملا فيما حواليه .

كان المطر قد كف وخفت حركة الشارع ، وبدا الطريق المغسول ملتمعا يعكس انوارا صفراء كابية ، وكانت راسه قد سخنت بالويسكي فبدا المساء اكثر وداعة والفة حين اخذ الناس يتوافدون على المشرب . كانت ثيابهم تحدد طبقتهم ولكنهم كانوا يعرفون كيف يبتسمون ويرشقون الساقي بتحياتهم عبر الموائد وهم يفركون ايديهم بشيء من الجذل ، وقليلا قليلا تقلص الفراغ ، وتغطت بلاطات الموائد بالاطباق الصغيرة ، وانتصب سقف واطيء من دخان اللفائف ، ووجد ما يشغل به عينيه .

لقد شغل اكثر الطاولات الا طاولتين قريبتين . فكر في ان يحتل احداهما ولكن ، قبل ان يبلغ بقدمه الارض كان شخص قد احتلها واراح عليها شالا صوفيا ويدين شعرتين صفق بهما للنادل صائحا :

ـ واحد لئلا ...

ولم يفقه العبارة ، كما لم يستطع ان يفسر لماذا ابتسم الجميع دفعة واحدة ، وعاد فثبت قدميه بكرسي البار منتبها النادل الذي حمل للرجل كأسا من الكونياك جرعها مرة واحدة ، ثم مسح فمه بكمه،وطلب اخرى بالطريقة نفسها ، ثم ما لبث النداء ان انبعث من ثان ، ثم من ثالث اطلقه من الباب، فاشار للساقي ان يقترب ، وساله ما الذي تعنيه العبارة ، ففرش هذا ابتسامته كلها وقال :

ـ صحيح ، انت تسمعها للمرة الاولى ، هل ستبقى هنا طويلا ؟

ـ ليس لدي ما افعله .

ـ اذن بوسعك أن تنتظر . لن اقدم لك حكاية مبتورة . في خلال ساعة تكون قد جاءت .

وابتعد عنه .

***

في اقل من ساعة نقر الساقي على كتفه وقال :

ـ التفت . هي ذي قد جاءت .

ونظر الى الخلف . كانت في وسط القاعة عجوز يابسة ، زائغة النظرات يهتز كتفاها تحت شال صوفي اسود التصقت به خصلات متهدلة من شعرها الاشيب .

حدقت في الموجودين ثم اختارت مائدة وجلست . ودون ان تقول شيئا مدت يدها الى كأس الزبون وعبتها ، ثم صاحت فيه « لماذا لا تطلب غيرها ؟ . اطلب اثنتين » .

ـ من تكون ؟

ـ تريد الحكاية كلها؟

ـ اذا كانت هناك حكاية

ـ انظر من النافذة . ماذا ترى ؟

ـ مخازن مقفلة ، ولا شيء غير ذلك .

ـ بلى ، اترى ذلك البيت ذا الطابقين ، الوحيد الباقي من سلسلة البيوت التي اكلها الحي التجاري المتوسع ؟ ذاك هو بيتها . لو كان الوقت نهارا للحظت نوافذه المخلعة ، والفريز سلمه المكشوف الصدىء والذي اكلته ملوحة البحر القريب .

ـ حسنا .. وماذا في ذلك ؟

ـ لا شيء .. ذاك بيتها ، وفيه عرفتها منذ فتحت هذا المحل قبل خمسة وعشرين عاما . ارأيت ؟ انني عتيق في الكار !!

ـ اي كار ؟

ـ لا تسيء فهمي .. اقصد ان محلي عريق وقديم .. لم يتغير فيه شيء حتى الزبائن .الا الذين ماتوا منهم .

ـ لم افهم شيئا بعد ..

ـ ذلك لانني لم ابدأ القصة .. في هذا البيت عاشت ، وكان لها زوج كهل ولم يكن لهما اولاد ، ولم يبد ان لهما اصدقاء او اهلا ايضا .. وحين كنت افرغ في الصباح فاقتعد كرسيا لاتمشى على باب المحل كنت اراهما احيانا ينزلان ، فيتوكا هو على عصاه بيد ، وعليها باليد الاخرى ، ثم يمشيان صوب قهوة قديمة كانت موجودة قبل هذا النادي الليلي الذي ترى اسمه مرسوما بالنيون . بجلسان ساعة او ساعتين ثم يعودان ، هذا اذا كان النهار مشمسا والا فلهما مجلس على النافذة نادرا ما يبرحانه ، لا يزورهما احد ولا يزوران احد . مقطوعان من شجرة ، وموردهما مساعدات يمدهما بها ابن اخ مهاجر . هكذا كان ساعي البريد يقول وهو يحمل رسالة واحدة مسجلة كل شهر او شهرين . وكان الوحيد الذي يرقى السلم المكشوف الذي تراه صبي البقال ، يحمل لهما حاجاتهما القليلة .

ولمدة طويلة لم نر الزوجين يأخذان طريقهما الى القهوة ، او جاثمين على النافذة ، ولكننا عرفنا السبب حين رأينا الطبيب يتردد عليهما ، غير اننا لم نعرف ايهما المريض الا حين جاءتني المرأة ذات ضحى، اجل ما ازال اذكر ذلك كأنه وقع الساعة ، وكنت قد وصلت لتوي المحل ونزعت سترتي وعلقتها على هذه العلاقة التي تراها . ولما استدرت رأيتها خلفي ، وبدت حائرة ومحرجة وخجولا وهي تقول .. « زوجي مريض .. ويقول الطبيب بان بعض الكونياك قد يساعد على توسيع الشرايين .. هو لا يشرب .. ما اذكر انني رأيت خمرة في بيته ، ولكن للضرورة احكام ..لست متأكدة من انه سيقبل ، ولكن يجب ان ادعه يشرب ولو ملعقة واحدة مع الشاي او بدونها .. هل تبيعني زجاجة . ؟ »

ولم اسألها اي الاصناف تريد . كان واضحا انها لا تميز بين شراب ، ولكنني اخترت لها زجاجة « مارتيل » ، وشعرت بسعادة وانا اقوم بدور الصيدلي ، ولان هناك من يعتبر بضاعتنا دواء ، الخمرة يا سيدي كخبز الشعير ، مأكول مذموم ... واذ ذكرت لها الثمن ترددت وقالت « كل ذلك؟ يا الهي . كيف يعزق الناس نقودهم .. نحن نراكم من النافذة ، نرى كيف يشرب زبائنكم حتى يتطوحوا .. على كل نحن مضطرون .. خذ.. خذ » وناولتني النقود من كيس من الجلد الاسود،ولم ترض ان تحمل الزجاجة دون ان ألفها .. ثم اخذتها ومضت.

ومع ان الرجل لم يمت الا بعد عام ، في الاسبوع الاول من ايام الصوم الكبير ، وقد شيعته بنفسي مع خمسة اخرين بما فيهم الكاهن وصبي البقال ، الا ان المرأة لم تشتر زجاجة اخرى .. ولكنها بعد موته باسبوع او اسبوعين حملت الزجاجة وجاءت طالبة الي ان استردها لان الزجاجة ، واقسمت برأس المرحوم ، هي هي لم تفتح ، لان المرحوم ثار وغضب اذ رآها ، ورفض بكل عناد ان تحاول حتى مجرد فتحها .. ومع انه ( وهنا بدأت دموعها تسقط ) كان يرضخ تماما لتعليمات الطبيب، يشرب الدواء السائل ثلاث مرات ، والحبوب بعد كل وجبة ، الا ان فكرة الشاي بالكونياك كانت تثيره .. ليته طاوعني وشرب .. ليته .. »

ونظرت الى الزجاجة ، ما كنت لاشك في ان المرأة صادقة ، وانها الزجاجة نفسها التي بعتها لها . وتساءلت هل من الحق ان استرد شيئا بيع قبل عام . انني ، اكيدا ، لا اقبل ذلك من غيرها ، الشغل شغل يا سيدي ، ثم قلت لها وقد تأثرت بدموعها ، ولم اكن اقصد بالطبع الا دفعها للابتسام ، « لماذا لا تشربينها انت ؟ » فاحمر وجهها حتى غدا كبنجرة مسلوقة وقالت بانفعال « اتسخر مني ؟ اذا كنت لا تريد ارجاعها فهاتها » . واختطفتها من يدي ، مع انني يا سيدي ، واقسم ، كنت عازما على ان استردها واعيد لها نقودها .. وهرولت تقطع الشارع وتصعد سلم بيتها ، ويعلم الله انني ظللت متأثرا النهار بطوله، ولعنت تسرعي الغير .. فانا في الحقيقة ما كنت اقصد السخرية منها . مجرد مزحة صغيرة .. ولا ادري لماذا وجدتها ثقيلة هكذا » .

هنا صفق احد الزبائن . وطنت عبارته ( واحد .. لئلا .. ) في اذني الغريب فاستأذن الساقي ومضى يهيىء له الطلب ، فانتظر هذا عودته ملهوفا اذ بدت القصة مثيرة ، والتفت يتأمل العجوز التي كانت قد انتقلت الى طاولة اخرى وشدت اصابعها الناشفة على كأس جديدة وقد بدت جذلى بما تسمعه من رفيق الطاولة ، ولما عاد الساقي قال :

« ها انت ترى .. كأس على كل مائدة .. اين وصلنا ؟ اه انا بالتأكيد لم اسخر منها. بالعكس انها سيدة تستحق الاحترام ، ومن انا بعد حتى اتطاول عليها .؟ ولكن اسمع ماذا حدث .. هنا الحكاية هنا.. غابت المرأة شهرا ، ثم جاءتني ذات صباح .. بدت لعيني وكأنها كبرت عشر سنوات ، نحيفة مرتعشة وهي تقترب مني لتتأكد من عدم وجود احد فتخرج الكلمات متقلقلة من فمها ، « اسمع اريد زجاجة اخرى .. لقد فرغت تلك . » سألتها باستنكار « تقصدين انك شربتها؟ » وشعرت بالغضب .. لماذا تركتني اشعر بالندم على مزحتي الصغيرة واري نفسي صغيرا طفيليا ؟ نظرت اليها بعين حمراء وانا اناولها الزجاجة فمدت يدا مرتجفة وقالت « انت لا تعرف ماذا يكون المساء بين جدران اربعة تنطبق علي لتخنقني .. انني اكلم نفسي لاصدق انني ما زلت قادرة على ان اتكلم .. لو شرب لما مات بتصلب الشرايين .. ولكنه حظي الاسود .. هات . »وتناولتها وهي تمسح عينها بيدها ، ثم مشت خطوتين وعادت لتهمس في وجهي .. « لا تذكر ذلك امام احد ... »

وصارت تشتري زجاجة كل اسبوعين ، ثم زجاجة كل اسبوع ، ثم زجاجة ما بين اليوم والاخر .. ثم لم يعد لديها ما تشتري به بعد ان انقطعت امدادات القريب بوفاة العم .. راحت تبيع اثاث بيتها قطعة بعد اخرى .. انا شخصيا اشتريت منها هذا الراديو الذي تراه وسجادة وست كراسي خيزران حملتها لبيتي .. وقد تدبرت لها من يشتري طقم صالون من الخشب الشامي المحفور .. اجل قطعة بعد قطعة حتى لم يعد لديها في غرفتها الا السرير الذي تنام عليه ، ولا ادري حتى اذا كانت قد باعته .. لو استطاعت ان تبيع البيت لما قصرت ولكن شريكها فيه ابن الاخ المغترب .. صارت تأتيني متمحكة .. حتى اتصدق عليها بكأس .. ما عادت كأسي ترويها فاذلت نفسها للزبائن .. تبدأ معهم بمقدمة واحدة لا تتغير سمعها الواحد منهم مائة مرة على الاقل .. تقترب منه وتقول « ان الحياة غدارة والا فلماذا مات زوجها وتركها للجدران الاربعة ، لليل يلوكها وتلوكه ... كان عنيدا ! لو شرب لما مات بتصلب الشرايين .. » ثم تلتفت مشيرة الي وتقول « اسألوه .. اسألوه .. كيف انني قبل ان يموت ما كنت اعرف طعم الخمرة .. الزجاجة ظلت مسدودة عاما كاملا .. ولكنني لا اريد ان اموت مثله ... لا اريد .. »

وكانوا يسمعون ويبتسمون ، ويقولون انهم لهذا يشربون..تصلب الشرايين مرض دنيء . ثم يجودون لها بالكؤوس .. وهم اكثر كرما معها حين يثملون .. وصاروا يفتقدونها لو غابت ليلة .. اصغ .. اتسمع ما نادى به هذا الداخل ؟ .. « واحد لئلا ... » اعذرني الان ، فزبوننا هذا يتطلب اهتماما خاصا .. انني اراها تقترب .. استعد لتسمع القصة فانت الجديد الوحيد هنا ..

***

تأملته بنظرات مهزوزة زائغة ، في محجري عينيها الغائرتين كانت تحمل هوية المدمن ، وخلف ذلك الوجه المصمت تبدت قصة الوحدة حين تكون شرسة الى حد اللاانسانية . واذ تململت لتقول شيئا اختصر عليها الطريق بسؤاله :

ـ هل لك في كأس ؟

قالت وهي تزداد اقترابا .. «انا ؟ انا لم اكن اشرب .. اسأل..»

وقاطعها .. « ادري . لا بأس اشربي واحدة .. واحدة تمنعين بها التصلب .. »

فصفقت بشيء من الجذل وقد انفرجت شفتاها عن تجويف فارغ..

ـ اذن انت مثلي تعرف ذلك .. قبل ان يقوله احد لك ... اجل سآخذ كأسا لئلا ... »

واكمل الساقي الذي كان قد اقترب منه ثانية :

ـ ... لئلا تتصلب الشرايين !

**سيمرة عزام**